جغرافية الأديان : الدين من منظور المكان

إن الأديان والعقائد هي من التنوع والتعدد والتباين بحيث يقدرها الدارسون والباحثون بحوالي أربعة آلاف ديانة تنشر حول العالم، وجغرافية الأديان تحظى باهتمام من قبل حقول معرفية عديدة مثل: الأنثروبولوجيا والفلسفة والتاريخ والاجتماع وأضيف إليها مؤخرا الجغرافيا. ومن المنظور الجغرافي يستمد الدين أهمية من كونه موجود ومنتشر في كافة بقاع الأرض ولا تخلو بقعة جغرافية منه، وأن العديد من الظواهر الدينية مرتبطة بالمكان كالحج، ولأن كثيرا من الصراعات الجيوسياسية المعاصرة ترتبط بالدين بشكل أو بآخر.

وعلى هذا نشأ ضمن علم الجغرافيا فرع يسمى (جغرافيا الأديان) وهو يهتم بالطريقة التي يتم بها التعبير عن الدين على الأرض وتأثيراته الاجتماعية والثقافية، ويعني بوجه خاص بوضع خرائط تبين انتشار الأديان وتوزيعاتها العالمية، كما يبحث عن تأثيرات الدين في القضايا الديموغرافية وفي الجغرافيا السياسية[1].

لا يلجأ الجغرافيون إلى تصنيف الأنظمة الدينية وفقا للتصنيف الشائع أديان سماوية في مقابل أخرى وضعية، أو وفقا لطبيعة العلاقة بين الإنسان والإله والتي تختلف بين الأديان، وإنما يعمدون إلى تصنيف آخر للديانات يضعها في فئتين كبيرتين؛ الأديان العالمية الأممية، والأديان العرقية المحدودة، وهنالك عدد محدود من الديانات لا تعتبر من هؤلاء ولا هؤلاء ويتم تصنيفها بوصفها ديانات جزئية:

أولا: الأديان ذات الصفة العالمية: وهي الأديان التي تتوفر فيها بعض الخصائص من قبيل: ايمان معتنقوها أنها صالحة للبشر كافة، امتلاكها بعض الميكانيزمات التي تجعلها قابلة للانتشار والتمدد الجغرافي، قدرتها على تحطيم القيود والمحاولات لإبقائها منحصرة في مجموعة أو فئة خاصة، تصدرها طليعة الأديان على الصعيد الإقليمي والعالمي، ووفقا لهذه الخصائص فإن المسيحية والإسلام والبوذية هي من الأديان العالمية، رغم أنها بدأت في نطاق عرقي محدد كرسالة المسيح التي كانت مختصة بقومه؛ وسرعان ما اتجهت نحو التمدد.

ويمكن تفسير هذا التمدد –ضمن أسباب عديدة- إلى يسر وسهولة اجراءات وعمليات انتقال الشخص إلى الدين الجديد إذا ما قورنت بالأديان العرقية؛ ففي البوذية ليست هناك أي رسميات للقبول والطرد، والشيء المهم الوحيد هو قبول الولاء والالتزام من غير إكراه، وكذلك الحال في الإسلام، فالشهادة هي بوابة الدخول إلى الإسلام وليس هناك بعدها أي طقوس أو مراسيم أخرى خاصة. وبعض هذه الأديان تمتلك مؤسسات تبشيرية خاصة كالمسيحية، وقد تغذت مؤسسة التبشير المسيحي عبر تاريخها على فكرة رئيسة وهي أن الأنظمة الدينية الأخرى غير صحيحة وينبغي إزالتها واستئصالها.

وعلى الرغم من عالمية هذه الأديان الثلاثة وانتشارها الواسع، إلا أن بعضها يواجه تحديات أهمها الانقسام الداخلي، وهو أشد وضوحا في الحالة المسيحية التي انقسمت إلى كنائس مستقلة وغالبا متخاصمة، وبعض هذه الانقسامات اصطبغ بالطابع العرقي كما هو الحال مع الكنيسة الحبشية التي عانت الانعزال الجغرافي والافتقار إلى الديناميكية والنشاط، أضف إلى ذلك أن المسيحية قد أكتسبت بعض الصفات العرقية وأنها أصبحت تعني لدى سكان مناطق من آسيا وأفريقيا ديانة الرجل الأبيض الغربي دون سواه[2].

ثانيا: الأديان ذات الصفة العرقية: وهي تتواجد في المجتمعات صغيرة الحجم متجانسة ثقافيا وغالبا ما يعيشون ضمن بلد معين، وتعدادها كبير نسبيا يقدر بمئات الديانات وعدد معتنقيها يزيد عن 150 مليونا من البشر، معظمهم يقطن مناطق مهملة جغرافيا غير أن بعضهم يقطن مناطق في العالم المتحضر كالولايات المتحدة التي تتواجد بها بعض الأديان العرقية مثل الهوبي والنافاجو، ويميزها عدم لجوء أتباعها إلى التبشير، ويضاف لذلك إيمان غالبها بالأرواح الطبيعية والاعتقاد بأن روحا ما تسير الكون والبشر وفق مشيئتها، كما يميزها أيضا عدم لجوئها إلى التبشير.

وتأثرت جغرافية الأديان بثمة عاملين كان لهما أبلغ الأثر في تقلص هذه الديانات، أولهما انتشار المدنية والتحضر الذي لا يلائم هذه الديانات التي تتلائم مع البيئات البدائية، وثانيهما التوسع الكبير الذي شهدته الديانتان العالميتان، الإسلام والمسيحية واجتذابهما أنصارا كثر بمضي الوقت.

ولعل أكبر وأوسع الديانات العرقية هي الهندوسية التي يبدو أنها تحولت إلى دين عالمي بسبب انتشارها، غير أن محتواها لا يبتعد كثيرا عن محتوى الأنظمة الدينية المغلقة المرتبطة بمجتمع الهند والقائمة على قدسية بعض الأماكن بها، الأمر الذي يمنحها طابعا عرقيا ويبتعد بها عن الصفة العالمية.

وتصنف اليهودية أيضا باعتبارها دينا عرقيا لأن المؤسسة الدينية والممارسات الشعائرية بها وثيقة الارتباط بالمجتمع اليهودي، فاليهودية هي الدين الذي ساهم في الحفاظ على المجتمع اليهودي عبر الطقوس والممارسات الخاصة التي لا يشاركه فيها غيره، ويبدو تميز الشخصية اليهودية من خلال ملاحظة أن بينما يميز المسيحيون أنفسهم عن الوثنيين، ويميز المسلمون أنفسهم عن الكفار فإن اليهود يميزون أنفسهم عن سائر البشر، ويعتبرون الشخص غير اليهودي جوي goi ، وهي تسمية عرقية، يصبح معها اليهودي متميزا عن جميع الفئات العنصرية على وجه الأرض[3].

ثالثا: الأديان الهامشية: وهي عبارة عن أنظمة دينية تمزج ما بين بعض ممارسات ومصطلحات الأديان العالمية وبعض المعتقدات القبلية العرقية، ومعضلة هذه الأديان أنها لا تصبح دينا عالميا لأنها تعمد إلى خلق الفروق العرقية بين معتنقيها وبين الآخرين الذين هم من الأوروبيين البيض، ولكنها من جهة أخرى؛ تقطع مع الحدود العرقية القديمة، وعلى هذا يصنفها الجغرافيون بحسبانها عرقية جديدة، ومن أمثلتها دين الكارجو كالت في ماليزيا، والكاواداي في اليابان، وبعض الأديان المتفرعة عن البوذية.

التوزيع الجغرافي للأديان

جغرافية الأديان وفقا للدراسة الديمغرافية التي أعدها مركز بيو الأمريكي عام 2015 تعد المسيحية الدين الأكثر انتشارا في العالم إذ يقدر عدد أتباعها حوالي 31 بالمائة من سكان العالم البالغ عددهم 7.3 مليار شخص، وهي تشغل مساحات شاسعة من العالم حيث تنتشر في الأمريكتين وأوروبا وروسيا وأستراليا وجنوب إفريقيا، وتنتشر الأرثوذكسية الشرقية في مناطق الاتحاد السوفيتي السابق ومعظم أوروبا وشمال إفريقيا، أما الكاثوليكية فتتركز في أوروبا وأمريكا الجنوبية والوسطى،على حين تهيمن البروتستانتية على جزء كبير من أمريكا الشمالية ولكنها موجودة أيضًا في أوروب، لكن الدراسة تؤكد أن أعداد المسيحين فيما يسمى بمعقل الدين المسيحي في تراجع[4].

يأتي في المرتبة الثانية الإسلام إذ يؤمن به مليار وثمانمائة مليون شخص أي 24 بالمائة من سكان العالم يتركز معظمهم في شمال أفريقيا وجنوب غرب آسيا، وهو الدين الأكثر انتشارا عالميا حسبما تذكر الدراسة التي ترجح أن هذه الزيادة ناتجة عن ارتفاع نسبة خصوبة النساء المسلمات دون نساء الأديان الأخرى[5]، وهو تعليل غير منطقي ويتجاهل عمليات التحول الطوعي إلى الإسلام من الأديان الأخرى، وعناصر الجذب الداخلية التي يتمتع بها.

تأتي المجموعات التي لا تؤمن بأي دين من ملحدين ولا أدريين في المركز الثالث بنسبة 16 بالمائة، والهندوسية في المركز الرابع بنسبة 15 بالمائة تليها البوذية بنسبة بالمائة، أما اليهودية فهي أقل الأديان انتشارا حيث يدين بها 0.2% من سكان العالم.

الخلاصة أن جغرافيا الأديان هي فرع من فروع الجغرافيا السياسية، وهي تدرس الدين في علاقته بالجغرافيا، وترصد انتشار الأديان العالمي وتحلل دواعيه واتجاهاته.

[1] https://geography.name/religion/

[2] دافيد سوفير، جغرافية الأديان، ترجمة: أحمد غسان سبانو، دمشق: دار قتيبة، 1991، ص 18-22.

[3] دافيد سوفير، المرجع السابق، ص 12-17.

[4] Christians remain world's largest religious group, but they are declining in Europe

https://www.pewresearch.org/fact-tank/2017/04/05/christians-remain-worlds-largest-/religious-group-but-they-are-declining-in-europe

[5] Why Muslims are the world's fastest-growing religious group

https://www.pewresearch.org/fact-tank/2017/04/06/why-muslims-are-the-worlds-fastest-/growing-religious-group